الفكاهـــة فى الأدب

بقلم أحمد هاشم عطية

المدرس بمدرسة فؤاد الأول الثانوية

إن فى طبيعة الانسان ، ميلا إلى التأنيس والتفرج ، تتمثل مظاهره عادة فيما يرتسم على ثغر المتهلل من الابتسام والتبلج عند الشعور بلطف النادرة والاستحسان لما تتضمنه الملحة الفائقة من لطف الانطباق على ما يستخف النفوس إلى الفرح

ولقد جعل الله ذلك المظهر من السرور من خواص الانسان المتميز بقوة العقل والمنطق ، وإن كان بعض العلماء يرى أن غيره من الحيوان الملهم ، قد يصل أحياناً إلى ما يشبه الاعجاب والضحك ، ولكن المعروف أن الله سبحانه وتعالى قد آثر بنى آدم بهذه النعمة التي أضافها فى الذكر إلى نفسه وجعلها معادلة للحياة كما جعل البكاء بإزاء الموت فى قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » والضحك واللعب إذ وقعا موقعهما ، وحسن اختيار الموضع اللائق بهما كان اللعب جداً والضحك وقاراً ، وصار كلاهما قسطاً ضرورياً لعلاج البدن وجمام النفس والاستمداد لاستئناف ما يتحمله العاملون من تكاليف الحياة وهم على أهبة من النشاط والمضاء

ولقد ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ومزح وفرح وضحك الصالحون وفرحوا .

وكان يوحنا وشمعون من الحواريين . وكان يوحنا لا يجلس مجلساً إلا ضحك وأضحك من حوله ، وكان شمعون لا يجلس فى مجلس إلا بكى وأبكى من حوله فقال شمعون ليوحنا : ما أكثر ضحكك ! كأنك قد فرغت من عملك ، فقال له يوحنا : ما أكثر بكاك ! كأنك قد يئست من ربك ، فأوحى الله إلى عيسى عليه السلام : إن أحب السيرتين إلىّ سيرة يوحنا . وسمى العرب ذوائبهم وأجوادهم بالطلق

والضاحك والضحاك والوضاح وبسام العشيات . ولو كان الضحك نقصاً لما أضافه الله فى الذكر إلى نفسه ولما وضعه فى معرض المنة على عباده فى الآية السابقة

تختلف الأمم وأجيال البشر فى مضاحيكها ونوادرها . وللأوطان الإقليمية وللآداب العامة وطرق الاكتساب وضروب الحرف وأنواع الصناعات أكبر أثر فى تأليف هذه النكات ، حتى لقد تعد الملحة الحارة فى قوم ، باردة شديدة البرودة عند آخرين .

وأعظم البيئات التى تنشأ فى هذه الدعابات هى بيئة الفُرّاغ المياسير من متأدبى الحواضر فى الغالب الذين يأخذون مجالسهم على أفواه الدروب أو فى دور من يتملحون بسمرهم وجمال نوادرهم من الخلفاء والأمراء وذوى النعمة .

ولقد حفلت الأمصار العربية فى أزمان مختلفة بكثير من أولئك الفراغ وحملة النادرة والمتكسبين بالسمر من طبقات الرواة والأدباء والشعرا والمغنين وأصحاب الأعاجيب وأهل الصناعات المختلفة ، وملئت بملحهم ونوادرهم المبسوطات العربية من أمهات كتب الأدب .

وأول من تندر وتكسب بالنادرة فى الإسلام الفاخرى بالمدينة ، وأشعب بمكة ، ولم يتورع التقى ابن الجوزى عن جمع النوادر لطوائف مختلفة من الناس فى كتاب سماه « الموشى فى النوادر » ، وألف الجاحظ كذلك رسائل مختلفة ونسج على منوالها كثير من المتقدمين والمحدثين ، وكان من أشهر من ألف فى ذلك الباب فى عصرنا المغفور له الشيخ حسن الآلاتى ، فقد وضع فى المجون والفكاهات كتابا من ثلاثة أجزاء سماه « ترويح النفوس ومضحك العبوس » .

وها نحن أولاء نشير إلى بعض ما استملحناه من جمهرة ما عثرنا عليه فى مطالعاتنا المختلفة من هذه النكات ، ونبدأ ببعض ما أثر من ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن بعض أصحابه ومن أتى بعدهم .

كان رسول الله صلى عليه وسلم يمزح ولا يقول حقاً :

أتته عجوز أنصارية ، فقالت : يا رسول الله ، ادع الله لى بالمغفرة ، فقال لها : أما علمت أن الجنة لا يدخلها عجوز ؟ فصرخت المرأة ، فتبسم رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، وقال لها : أما قرأت قوله تعالى : « إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكاراً عرباً أترابا » ؟ أي أنها ستكون شابة حينئذ .

ونظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أعرابى قد صلى صلاة خفيفة فلما قضاها قال : اللهم زوجنى بالحور العين ؛ فقال عمر : يا هذا أقللت المهر وأعظمت الخطبة

وكان نعيمان من أصحاب رسول الله البدريين مشهوراً بالمزاح . خرج مرة مع أبي بكر الصديق إلى بُصرى وكان فى الحملة سويبط ، وهو بدوى أيضاً ، وكان سويبط على الزاد ، فجاء نعيمان وقال له : أطعمني ، قال لا ، حتى يأتى أبوبكر . فقال نعيمان : والله لأغيظنك ، وجاء إلى أناس جلبوا ظهراً فقال : ابتاعوا منى غلاماً عربياً فارهاً إلا أنه دعاء له لسان لعله يقول : أنا حر . فإن كنتم تاركيه فدعوه لا تفسدوا علىَّ غلامى . قالوا : بل نبتاعه منك بعشر قلائص . فأقبل بها يسوقها وأقبل بالقوم حتى عقلها ثم قال : دونكم هذا هو . فقالوا : قد اشتريناك ، فقال : سويبط هو كاذب أنا رجل حر فقالوا : قد أخبرنا بذلك . ووضعوا فى عنقه حبلاً وذهبوا به ، فجاء أبو بكر رضى الله عنه فأخبر بذلك فذهب هو وأصحابه فردوا القلائص على أربابها وأخذوه وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بالقصة فضحك منها حولا

وسمع أبو الأسود الدؤلى وكان بخيلاً ، مسكيناً يقول : من يطعم الجائع ؟ فقال : على به ، فلما جاء أمر له بطعام ، فلما أكل وذهب ليقوم قال له أبو الأسود : إلى أين ؟ لتزعج عباد الله كما أزعجتنى ! أخرجوه فى الأدهم ؛ فبات مقيداً حتى الصباح

قيل لأشعب : قد لقيت رجالا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلو حفظت أحاديث تتحدث بها ! فقال : أنا أعلم الناس بالحديث . فقيل له : حدثنا ، قال : حدثنى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم قال : خلتان لا تجتمعان فى مؤمن إلا دخل الجنة... ثم سكت ، فقيل له : هات ما الخلتان ؟ قال : نسى عكرمة إحداهما ونسيت أنا الأخرى .

قال أشعب : جاءتنى جارية بدينار وقالت : هـذا وديعة عندك ، فجعلته بين الفراش ، فجاءت بعد أيام وقالت : بأبى أين الدينار ؟ فقلت : ارفعى الفراش وخذى ولده فإنه قد ولد . وكنت قد تركت إلى جنبه درهماً ، فأخذت الدرهم وتركت

الدينار ، وعادت بعد أيام فوجدت معه درهماً آخر فأخذته ، وفى الثالثة كذلك ، وجاءت فى الرابعة ، فلما رأيتها بكيت ، فقالت : مايبكيك ؟ قلت : مات دينارك عند الولادة ؛ فقالت وكيف يكون للدينار ولد ؟ فقلت لها : تصدقين بالولد ولا تصدقين بالولادة ! !

وغضبت سكينة بنت الحسين بن علىّ على أشعب فحلفت لتحلقن لحيته ، ودعت بالحجام ؛ فلما تناوله ليحلق له قال : انفخ أشداقك حتى أتمكن منك ، فقال له أشعب : ياعدو الله ، أمرتك أن تحلق لحيتى أو أمرتك أن تعلمنى الزمر !

وجلس بعض المتشبهين بالقضاة على دكان حانوت لرجل يتنخس فى الدواب فطبق الشيخ باب حانوته بعمامته وطيلسانه ، وحضر إليه رجل من صناع الكلام فقال له : أبنى حماراً ليس بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر ، إذا خلا له الطريق تدفق ، وإذا كثر الزحام ترفق ؛ إن أقللت علفه صبر ، وإن أكثرته شكر ، فقال له النخاس : والله ما أجد فى الناس حماراً بهذه الصفة ؛ ولكن اصبر ، فان مسخ الله هذا الجالس حماراً ابتعته لك ، وأصبت حاجتك إن شاء الله .

وقال إبراهيم بن سيابة المغنى لبشار الأعمى : ما سلب الله من مؤمن كريمتيه إلا عوضه عنها إما الحفظ والذكاء ، وإما حسن الصوت ؛ فما الذى عوضك من عينيك ؟ قال : فقد النظر إلى بغيض مثلك

خرج المهدى للعيد فغلبه فرسه حتى أنهى به إلى خباء أعرابى ، فقال : يا أعرابى هل من قرى ؟ قال له نعم ، وأخرج له فضلة من مُلّة فأكلها وفضلة لبن فسقاه ، ثم أتى له بشراب فسقاه قعباً ، فلما شرب قال أتدرى من أنا ؟ قال لا والله ، قال أنا من خدم الخاصة ، قال بارك الله فى موضعك ، ثم سقاه آخر ، فلما شربه قال : أتدري من أنا ؟ قال زعمت أنك من خدم الخاصة ، قال: بل أنا من قواد أمير المؤمنين ، فقال له الأعرابى : رحبت بلادك ، وطاب مزادك ومرادك ، ثم سقاه قدحاً ثالثاً فلما فرغ منه قال يا أعرابى أتدرى من أنا ؟ قال زعمت أخيراً أنك من قواد أمير المؤمنين ، قال لا ولكنى أمير المؤمنين ، فأخذ الأعرابى الشراب وأبعده وقال والله لئن شربت الرابع لتقولن إنك لرسول الله ! فضحك المهدى ثم أحاطت بهم الخيل

فنزل أبناء الملوك والأشراف ، فطار قلب الأعرابى فقال له الهدى : لا بأس عليك . وأمر له بصلة ، فقال : أشهد أنك صادق ، ولو ادعيت الرابعة لصدقتك !

ورفع قهرمان لبشار فى حسابه الشهرى : جلاء مرآة بعشرة دراهم ، فقال بشار : يا لله ؛ جلاء مرآة أعمى بعشرة دراهم ! والله لو صدئت عين الشمس ما كان جلاؤها على الله عشرة دراهم .

ورأى بعضهم أعمى يحمل على كتفه جرة ، ويمسك بيده الأخرى مصباحاً مضاء ! فقال له : يا هذا ، أنت أعمى فلم تحمل هذا المصباح ؟ فقال : حتى لا يلقانى أعمى البصيرة مثلك فيمتر بى .

ولزم رجل من الثقلاء دار الجاحظ ، وألح عليه فى كتاب شفاعة لرجل يعرفه حتى أعياه وأبرمه ؛ فكتب له الجاحظ كتاباً ، فأخذه الرجل ، فلما خرج فضه فإذا فيه : « كتابى إليك مع من لا أعرفه ولا أوجب حقه ، فإن أنت قضيت حاجته لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمك » فعاد الرجل إلى الجاحظ ، فقال له : لا بأس عليك فهذه علامة بينى وبين المكتوب إليه إذا أردت العناية بإنسان ؛ فقال الرجل : إذن فقطع الله لسانك ، وأعمى بصرك ، وقصم صلبك ، فقال له الجاحظ : لماذا ؟ فقال له الرجل : لا بأس عليك ، فهذه علامة بينى وبين الله إذا أردت الدعاء لانسان

وهجا ابن الرومى أحد الولاة فدس له السم فى كعكة ، فلما أكلها وأحس بالسم ، قام ليخرج ، فقال له الوالى : إلى أين ؟ فقال : إلى الموضع الذى بعثتنى إليه فقال له : أقرئ والدى منى السلام ، فقال له : حمّله غيرى فليس طريقى على النار .

وأمم العالم التى يظن أنها فى شغل عن هذه المجالس بما يترادف فى ميادين العمل عندها من النزاع المستمر والجد المتواصل ، لا تخلو من نوادر وأضاحيك ، حتى لقد صار هذا النوع من الهزل فناً تسامى فيه المتمهرون من ذيوع الصيت وتعالم الأمر إلى مراتب الأفذاذ من رجالات التاريخ

ولا تزال دور التمثيل ومسارح الخيالات فى بلاد العالم تجد الحاجة شديدة ماسة إلى هذه الأدوار الهزلية التى تغرق الجماهير عند مشاهدتها أو سماعها فى الضحك والاستلقاء والفحص .

وفى الغالب أن المأثور عند الفرنسيين ، أو الانجليز ، أو الألمان أو غيرهم من الحكايات فى هذا الموضوع ، قد لا يصيب من نفوس الشارقة موضعاً يذكر .

ويشتهر أهل مصر بالتقليس وإرسال النوادر ، حتى غلب ذلك على كثير من أدبائهم وشعرائهم ، وقد نبغ من هؤلاء فى عصرنا الحاضر المغفور لهم : الشيخ على الليثى ، والشيخ حسن الآلاتى ، والنجار ، وحفنى بك ناصف ، وكان خاتمة أهل الظرف والاحسان للملح حافظ ، والبابلى ، فقد بلغا الغايات فى استيلائهما على النفوس بمحاسن الطرف وما أثر عنهما رحمهما الله من النوادر .

ومن ملح هذا العصر :

أن المغفور له الشيخ على الليثى من سمّار عزيز مصر الخديو إسماعيل والخديو توفيق المقربين لديهما كانت له حجرة خاصة به . فمر المهردار يوماً على هذه الحجرة ، فرأى فيها مكتباً فخماً ، وأثاثاً جميلاً والليثى جالس على المكتب ولا عمل له فى الدولة !

فأمسك المهردار طباشيرة وكتب على باب الحجرة : (إنما نطعمكم لوجه الله) ومضى ، فقام الليثى ليرى ما كتبه المهردار ، فرأى تلك الجملة ؛ فتوجه في الحال إلى مكتب المهردار وكتب على بابه :

عملت ساقية من ذهب تروي رياض الجلّنار
علقت فيها الطور عصى علقت فيها المهردار

* * *

وكان المرحوم حفنى بك ناصف فيه دعابة وخفة روح تلازمانه حتى فى شعره ، فمن ذلك قوله فى تكريمه لخليل بك مطران فى قاعة الجامعة المصرية القديمة وكان قد أنعم عليه بوسام :

مطران ما حققت أمرك شيء أراه يزين صدرك
ما أنت فى الآداب مطراناً ولكن أنت بطرك

ومن دعاباته الفكهة قصيدة فى شكر وزير الحقانية عند ترقيته إلى وكالة محكمة قنا وفي وصف تلك المدينة :

قالوا شخصت إلى قنـــا يا مرحباً « بقنا » وإسنا
قالوا قنا حر فقلـــت وهـل يرد الحر قنا
ها قد أصبت البرد والبـــرداء والقلب اطمأنّ
قـد خفتِ النفقات إذ لا أشترى صوفاً وقطناً
وفرت من ثمن الوقو د النصف أو نصفاً وثمناً
فاذا بدت لى حاجـــة فى الغسل ألقى المـاء سخناً
أو رمت طبخاً أو علا ج الخبز ألقى الجو فرناً
عش فى القرى رأساً ولا تسكن مع الأذناب مدناً

وكان للمرحوم الأستاذ عثمان بك لبيب حمار يثقل عليه فى دروب القاهرة وفى الذهاب إلى المدارس للقيام بعمله ، فسرقه اللصوص

وبلغ الخبر المرحوم محمود أفندى سلامة صاحب جريدة الواعظ فقال يرثى الحمار المسروق :

قف بسوق الحمير وانظر ملياً هل ترى أدهماً أغر المحيـــا

خلسته يد اللصوص صباحاً موكفاً ماجماً معداً مهياً
فخلا أصطبله وأصبح قاعاً صفصفاً خاوى العروش خلياً

كان يا حسرتا عليه صبوراً قانع النفس راضياً مرضياً
كم ليال على الطوى قد طواها حامداً شاكراً ولم يشك شياً
لا لفقر وضيق عيش ولكن كان فى الزهد راغباً وتقياً
لو أتاح الاله للبهم رســـلاً كان فى أمة الحمير نبياً
ليت شعرى أين الأمان وهذا جحش عثمان قد عدمناه حياً
كان عوناً له إذا رام ظعناً وخليـــلاً لدى المقام صفياً

كان إن قلت (هش) أجابك طوعاً وإذا قلت (حا) أنتضى سمهرياً
لك فيه العزاء عثمانُ أما سالبوه فسوف يلقون غياً

ومن نوادر البابلى وهى بلدية طبعاً :

أنه سافر مرة إلى الاسكندرية ، ونزل فى فندق واستأجر غرفة بسريرين فزاره صديق له فقال له وقد دهش : أنت وحدك فلماذا استأجرت غرفة بسريرين ؟ فقال له البابلى : « حتى أشبع نوم يا أخى »

* * *

وكان حافظ والبابلى يسيران يوماً بحلوان ومعهما المرحوم أحمد جاد وكان مشهوراً بحلاوة النكتة البلدية ، وحافظ ينشد بيتاً لأبى تمام ، والبابلى ينشد بيتاً لكثير ، وأحمد جاد يسير بينهما مطرقاً فقال له حافظ مالك تمشى بيننا ساكتاً كالحمار ؟ فقال له جاد : لا ، بل أنا أعزك الله كالعريش

* * *

وإمام العبد من زجالى هذا العصر وشعرائه ومجانه كان يقول فى مجالسه: حافظ ! ومن حافظ ؟ أنا أخلق فى اليوم عشرين حافظ وشوقي . ومن شوقى؟ أنا أخلق فى اليوم عشرين شوقى! وبلغ ذلك حافظا ثم ذهب إمام إليه ليتسلف منه ريالا . فقال له حافظ : والله يا مولاي كما خلقتنى !

أحمد هاشم عطية